جذور الدولة العثمانية
من خلال التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر

زينه إبراهيم حبلي*

نشأت الدولة العثمانية على نحو مماثل لكثير من الدول والإمارات التركية التي نشأت في ذلك الوقت في منطقة آسيا الصغرى، لكن المستقبل الكبير الذي صارت إليه، بأن تصبح دولة مترامية الأطراف، وأن تحكم شعوبًا ومللًا متعددة، قد أثار إعجاب المؤرخين، فكتبوا عن تاريخها الحربي والفتوحات العسكرية أكثر مما كتبوا عن تاريخها الاجتماعي لأن طابعها الذي نشأة عليه كان الطابع العسكري الحربي، لكن هذا التاريخ الاجتماعي، وإن تناوله بعض البحّاثة، فمن باب ربطه بالأسباب التي حكمت هذا التوزيع الطبقي للمجتمع العثماني دون الغوص في مدلولاته المؤثرة في قيام الدولة العثمانية.



السُلطان الغازي أبو المُلوك عُثمان خان الأوَّل

فالسؤال الذي يجب أن يطرح هنا: ما مدى تأثير قوة الطبقات الاجتماعية ودورها في تطور الإمارة العثمانية الفتية وتحولها إلى دولة كبرى في مدة وجيزة زمنيًا؟ وهل كانت للحياة الروحية في الأناضول أثر في تطور دور الإمارة؟

إذا أردنا أن نفهم تمام الفهم تاريخ الدولة العثمانية الاجتماعي، فعلينا أن نوجه عنايتنا لدراسة التاريخ الاجتماعي للأناضول في القرن الثالث عشر. وهي الفترة التي سبقت قيام الدولة العثمانية، حينها كانت دولة سلاجقة الروم قد بلغت أقصى مجدها ثم انحدارها وضعفها، كما تعدّ هذه المرحلة هي الممهدة لقيام الدولة العثمانية وتوسعها السريع في ما بعد، وبسط سلطانها على أراضٍ شاسعة وعلى ذلك الخليط السكاني الشديد التنوع الذي حكمته. فقد ورث القرن الرابع عشر كثيرًا من هذه الأوضاع التي كانت سائدة سابقًا، مع تغيرات طفيفة.

- لمحة تاريخية لآسيا الصغرى

بعد الفتح الإسلامي لبلاد الشام واستقرارهم فيه، وجه المسلمون عنايتهم منذ عهد الأموين للأناضول، فوصلوا إلى أرمينية وقيليقية وقيوماجين، كما وصلوا ببعض غزواتهم حتى بحر مرمرة وحاصروا استانبول مرتين. وكانت بعض الأتراك قد دخلوا الأناضول قبل الإسلام[1]. استمرت غزوات المسلمين في العصر العباسي لهذه

المنطقة، وبعد دخول الترك الإسلام وانضوائهم في خدمة الخليفة العباسي، أخذ العباسيون يوطنون أقسامًا منهم في المناطق الأناضولية الخاضعة لهم. وكانت مهمتهم هي الدفاع عن بلاد الإسلام والإستيلاء على الأناضول الذي كان خاضعًا للبيزنطيين، وكان النصر حليف المسلمين طوال حكم الأسرتين البيزنطيتين الأيسورية (717-820) والعمورية (820-867)، فلما انتقل الحكم إلى الأسرة المقدونية (867-1059) توالت الهزائم على المسلمين حتى خرجت الثغور جميعًا من أيديهم. لكن ظهور السلاجقة، وكانوا يدينون على المذهب السني الحنفي (وانتقل في ما بعد مذهبهم بالوراثة إلى سلاطين آل عثمان)[2]، ومحاربتهم للبيزنطيين تحت راية الخلافة العباسية، وتصميمهم على ضمّ الأناضول لديار الإسلام، قلب ميزان القوى في مناطق الثغور لصالح المسلمين، واستطاعوا أن يخربوا قدرة البيزنط الدفاعية من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية، حتى إذا كانت معركة ملاذكرد على يد ألب أرسلان سنة 1071 انكسر البيزنطييون[3]، إذ ذاك انفتح الأناضول من ناحية الشرق أمام العشائر التركمانية القادمة من أواسط آسيا، التي سرعان ما توغلت غربًا حتى أشرفت على منطقة المضايق وعلى بحر إيجه، وباتت هذه العشائر نواة توطنت من حولها عشائر تركمانية أخرى وافدة، وقد حمل هؤلاء الوافدون ثقافتهم الزراعية القديمة وحياة الرعي التي كانوا معتادين عليها[4]. وهكذا كان العنصر التركي ممن هاجروا خلال حركة الأوغوز الكبرى التي قادها السلاجقة من أواسط آسيا (قد تدفقوا على فارس وأرمينيا والأناضول والقوقاز وجنوبي روسيا)، فالذين قدموا إلى الأناضول قد انضموا إلى الدولة السلجوقية الجديدة باعتبارهم طبقة محاربة كانت تتمتع بالاقطاعات، وقد شكلوا أهم ركائز الطبقة العسكرية. لكن كان يوجد خارج هذا التنظيم العسكري عدد كبير من مجموعات المقاتلين الأشداء ذات استقلال ذاتي وكانوا مجاهدين ومحاربين أشداء للبيزنطيين، فظهرت بينهم حركة المجاهدين (الغزاة) وكانت ذات شعبية واسعة، وكانت هذه الحركة أول ما ظهرت في بلاد خراسان وما وراء النهر.

عقب انحلال دولة آل سلجوق بموت السلطان ملكشاه في سنة 1092 [5]، تأسست دولة سلاجقة الروم في الأناضول وكانت في بداية القرن الثالث عشر قد بلغت أوجها بعد قضائها على أعدائها، وبعد أن استكان لهم الأمر في الأناضول، انفتحت أبواب التجارة الأوروبية أمام دولتهم إثر ضم كل من أنطاليا على البحر الأبيض المتوسط عام 1207 وسينوب على البحر الأسود عام 1214، وتم عقد معاهدات تجارية مع الجمهوريات الإيطالية، وقد أرسل البنادقة إلى السلطان علاء الدين سفيرًا عام 1228، نتيجة ذلك عمّ الرخاء المدن السلجوقة وانغمسوا في المتارف وتخلوا عن القتال[6].

ما لبث أن جاء الغزو المغولي في أواخر النصف الأول من القرن الثالث عشر بعد معركة كوسه داغ (الجبل الأقرع) سنة

1243، بحيث منيت دولة سلاجقة الروم بهزيمة كبيرة أمام المغول، حينها قبض المغول على زمام الحكم في الأناضول وتحول الحكم السلجوقي إلى ظل تابع لهم وألزم بدفع جزية سنوية باهظة، مما أثر على النواحي السياسية والاجتماعية[7]. أما من الناحية التجارية إبان الحكم المغولي، ومن بعدهم الإيلخانيين (اعتبارًا من العام 1276) فإن الرخاء الاقتصادي استمر في الأناضول، بل يمكننا القول إن الأناضول وهو ضمن حدود الإمبراطورية الإيلخانية[8] الكبيرة كان في وضع ملائم لتجارة الترانزيت بين أوروبا ووسط آسيا والشرق الأقصى بسبب تخلصه من حواجز الحدود. وكان من النتائج المباشرة لغزو المغول هجرة التركمان من آسيا الوسطى باتجاه الغرب نحو إيران وشرق الأناضول[9].

- الحياة الاجتماعية في دولة السلاجقة

في القرن الثالث عشر تشكل مجتمع أتراك الأناضول من ثلاث مجموعات هي: البدو، وأهل القرى وأهل المدن (الحضر)، إضافة إلى فرق الغزاة المجاهدين (الآلبر) وجماعات الأخوة (الآخيان من التجار وأهل الصناعة) ودراويش الطرق الصوفية[10] الذين لعبوا دورًا مهمًا في نشر الآداب الصوفية والدين الإسلامي بين عامة العشائر التركمانية، ويتصفون بأنهم يضعون على رؤوسهم قلانس بيض ويدير هذه الجماعة رئيس منتخب، وما لبثوا أن أقاموا التكايا المولوية الدينية في عواصم الإمارات التركمانية جميعها في الأناضول[11]. فالبدو يزاولون الزراعة وتربية الحيوان، وكانت حرفتهم الوحيدة صناعة السجاد الأناضولية المشهورة يستكملون بها وسائل العيش. وكان عليهم أن يؤدوا للدولة ضرائب سنوية عينية ويعفى من هذه الضرائب العشائر التي أقطعت في مناطق الحدود لأن وضعها المعيشي في خطر مستمر، مع تقديمها خدمات عسكرية للدولة كلما احتاجت لذلك[12]. ومع أن هذه العشائر كانت مسلمة لكنها لم تكن متمسكة بدينها إلا بشكل سطحي، بل كانت أكثر اتباعًا لتقاليدها المتوارثة.

أما أهل القرى فيشكلون أكثرية بالنسبة لعدد سكان الأناضول الذين بدأوا بالتوافد والاستيطان به منذ القرن الثاني عشر. كما توطن سكان المدن في المدن الأناضولية، وقد حمل هؤلاء الترك ثقافتهم الزراعية، وأتوا أيضًا بأسماء قرى ومدن مهدهم الأول، وأطلقوا الأسماء نفسها على القرى والمدن التي أنشأوها، وبذل السلاجقة، وفي ما بعد، خلفاؤهم العثمانيون جهودًا كبيرة في سبيل توطين البدو، وحثّهم على الإقامة والتحول إلى الحياة القروية.

أما دور القرى الاقتصادي وتشكيلها الاجتماعي فقد كان أهلها إما يزرعون بأنفسهم أراضي مملوكة لهم أو يزرعون أراضي غيرهم لقاء أجر يومي، أو يستغلون رؤوس أموالهم لقاء اقتسام الأرباح مناصفة مع مالك الأرض. والطبقة الحاكمة في القرية هي صلة الوصل بين أجهزة الدولة والشعب. ومن ناحية الضرائب كانت الدولة تحصلها إما من الخراج أو من عشر المحصولات.

بينما أهل المدن يشكلون أهم عنصر في المجال الحضاري، وما ساعد أهل الحضر على ذلك هو أن الدولة السلجوقية بعد أن استتب لها الأمر كوّنت جهازًا إداريًا محكمًا ساعد على تطور التجارة الداخلية والخارجية، ومما زاد التجارة تطورًا هو التدابير التي اتخذها السلاطين لحمايتها، وكانت إمبراطورية سلاجقة الروم ممرًا بحكم موقعها الجغرافي لعدد من الطرق التجارية العالمية وكان من الطبيعي أن تبذل الدولة جهودًا في سبيل تأمين طرق تجارة الترانزيت المارة بأراضيها. كما كان لنشاط الصناعات المحلية وحمايتها من قبل الدولة، أن نعم السلاجقة بالرخاء.

عندما بدأت دولة سلاجقة الروم في التفكك نتيجة لضغوط المغول، أخذت العشائر التركية التي كانت تعيش على شكل تكتلات ضخمة في شرق ووسط الأناضول تفرّ أمام الزحف المغولي، لتستقر غربًا على الحدود الشرقية للدولة البيزنطية وتشكل إمارات تركمانية مستقلة أو شبه مستقلة[13]. وبسبب التهديد المغولي القادم من الشرق أخذت هذه العشائر تعيش على شكل تكتلات ضخمة، وتعتاش قطعانها من المراعي الواقعة في غربي الأناضول.

شكل الوافدون التركمان الجدد من المسلمين أكثرية في مناطقهم، ولأنهم مسلمون نجدهم يبنون المساجد، وقد فرضوا الطابع التركي الإسلامي على المدن[14]. ومما يلفت أيضًا أن المسلمين والنصارى (روم وأرمن) كانوا متجاورين في المدن ولم يكن بينهم أي فروقات من الناحية الثقافية أو الحضارية المادية، أو أي خصومات ناشئة عن أسباب دينية بل كان سلاطين السلاجقة بعيدين كل البعد عن أي تعصب ديني[15].

يقابل هذا الازدياد الإسلامي المستمر، نقص متواصل في الجانب المسيحي، إذ كانت هذه العناصر آخذة، وحتى قبل توطن التركمان، في ترك قراها بجنوب الأناضول ووسطه لتسكن المدن أو بجوار القلاع لتكون بمنأى عن الغارات التركمانية على البيزنطيين، فلم يكن لهذه العناصر دور حضاري يؤثر في الحياة الإسلامية بالأناضول، ما خلا بعض العادات والتقاليد وأنماط المعيشة المنزلية انتقلت من البيزنطين إلى بعض الفئات التركية، بسبب بعض زواج الأثرياء الترك من الروميات[16]. من هنا فإن التأثير البيزنطي في المجتمع لم يتجاوز بعض الحالات الفردية.

- الحياة الثقافية في دولة السلاجقة

إثر الغزو المغولي، دخلت أراضي الأناضول إلى جانب المغول، جماعات أخرى من الفرس والترك المسلمين[17]، فغلبت المدنية الإسلامية بعنصريها العربي والفارسي على



جمال العمارة السلجوقية يتجلى في مدرسة الشفاء التي تعود إلى القرن الثاني عشر

الأناضول بعد تتريكها، وكانت اللغة العربية هي لغة التدريس في المدارس، وفي الوقت نفسه اللغة الرسمية، وظلت هكذا حتى قامت الفارسية مكانها على يد وزير هولاكو فخر الدين علي بن الحسين، ثم ساعد السلاطين السلاجقة على سيادة اللغة الفارسية لأن هؤلاء السلاطين أنفسهم كانوا يكتبون بهذه اللغة، ونتيجة ذلك دخلت إلى اللغة التركية آلاف الكلمات العربية والفارسية[18].

كما هيأت الدولة السلجوقية للعلم بيئة مثالية بإنشائها المدارس النظامية، وبرعايتها طلاب العلم، وتأمينها الحصانة والحرية للعلماء فانتشر العلم والثقافة[19]. وأكرموا وفادة الشعراء ورجال الفكر ما أدى إلى كثرة الإنتاج الأدبي بالفارسية.

وكان أشهر أدباء تلك الفترة جلال الدين الرومي (1207- 1273م) صاحب المثنوى، وحاجي بكتاش ولى (1209-1271م)، ويونس أمره (1240 - 1320م) الذي نظم الشعر الصوفي[20]، وفخر الدين العراقي صاحب "اللمعات"، وقطب الدين الشيرازي الطبيب والفلكي، ونجم الدين الداية صاحب "مرصاد العباد"[21].

تأسست في الأناضول في هذا العصر، طريقتان كبيرتان للتصوف هما: المولوية التابعة لجلال الدين الرومي، والبكتاشية التابعة لحاجي بكتاش ولى، لكن المؤسس الحقيقي للطريقة المولوية هو سلطان ولد ابن جلال الدين الرومي (1226-1312م) الذي كتب الشعر الصوفي التركي، وعاشق باشا يعدّ من الذين نظموا الشعر الصوفي التركي (ت. 1337)، أما داهية المزاح التركي فكان نصر الدين خوجا (1208-1248م)، والشاعر أحمدي (1334-1433م) يعدّ من الذين نهضوا بالشعر الكلاسيكي، والشاعر دهانى أكبر شاعر كلاسيكي تركي في القرن الثالث عشر[22].

من مميزات الترك الذين استوطنوا في الأناضول، أنهم كانوا ينطقون بلهجة أوغز (اللهجة الغربية) التركية التي انقسمت بدورها إلى ثلاث لهجات في أواخر القرن الخامس عشر وهي: اللهجة العثمانية أو الأناضولية أو التركية، واللهجة الآذرية، واللهجة التركمانية. على أن السلاطين السلاجقة أكثروا من استعمال اللغة الفارسية في الشعر لكن في المعاملات الرسمية اعتمدوا العربية[23]، ولم يكن لعامة الشعب معرفة بهاتين اللغتين. ووجهوا عنايتهم أيضًا إلى فن العمارة فتميزت العمارة السلجوقية بالواجهات المزدانة بالزخارف، فظهرت مداخل المساجد والمدارس التي شيدت في عهدهم بفخامتها، وبدا إلى جانب الرسوم الهندسية وحواشي الخط في الأبنية غير الدينية، صورًا تمثل النبات والحيوان، ومن خلال هذه التصاوير تحرر الفن التركي الشعبي من نزعة الفن الإسلامي القديم، الناشئ عن التجريد السامي، والذي يتحاشى التصوير.

ففي هذه البيئة الثقافية التركية ظلت الزخرفة الحيوانية مقصورة على المنشآت العامة، مثل سور قونيه[24].

- عوامل بناء الدولة العثمانية وتطورها الاجتماعي

كانت قبيلة قايي (التي يرجع أصلها إلى عشيرة الغز التركية) تقطن جبال "التون طاغ" في وسط آسيا، إثر زحف المغول بقيادة جنكيز خان اتجه الأتراك غربًا. ووصلت القبيلة برئاسة سليمان شاه إلى خراسان وعملت لدى خوارزمشاه جلال الدين في حروبه ضد المغول. ومع انتصار المغول على الخوارزميين ذهب سليمان شاه جد آل عثمان ناحية كردستان، فنزل بادئ الأمر في اخلاط، ثم ارتحل عنها إلى أرزنجان. ولما علم بتوقف الزحف المغولي إثر موت جنكيز خان، صمم على العودة إلى خراسان، وخلال عبوره نهر الفرات غرق فيه فدفن عند قلعة جعبر (1231م). لكن أولاده لم يكونوا جميعًا متفقين على العودة إلى خراسان، فانقسموا عقب موت الوالد، وواصل المسير شطر خراسان، ولداه الكبيران ومعهما القسم الأكبر من القبيلة، فرجع إلى أرمينية كل من ولديه أرطغرل ودوندار مع العدد الأقل من أفراد القبيلة[25].

في هذا الوقت عادت تحركات المغول باتجاه الشرق ثم توغلهم في هضبة الأناضول، فهرب المسلمون الأتراك غربًا بعيدًا عن سيطرتهم، واستقر بعضهم على التخوم البيزنطية. ولم يستطع البيزنطيون لضعفهم من أن يضعوا حدًا لهذا المد البشري المتقدم نحوهم بخطى سريعة[26]. ومن نتائج هذا الوضع أن ظهر في تلك البقعة ومنذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر عدد من الإمارات التركية الصغيرة العسكرية، تكونت كل واحدة من إقليم يسيطر عليه أمير يحمل لقب "غازي" حسب التقاليد الإسلامية أو بحسب التقاليد التركية لقب "آلب". ونجحت كل إمارة في تقوية نفوذها المحلي وتوسيع رقعة أراضيها على حساب البيزنطيين، أو في داخل الإقليم الإسلامي بسبب اضمحلال سلطة سلاجقة الروم والصراع الداخلي بين رجالاتها على السلطة، والضغوط المغولية على شرق ووسط الأناضول، مما مكن هذه الإمارات من تكوين تشكيلات سياسية جديدة على الحدود البيزنطية.

تأسست في الجزء الشمالي الغربي من الأناضول واحدة من هذه الإمارات وهي قبيلة قايي برئاسة أرطغرل، لم تكن في البدء إمارة عظيمة، وكان ذلك عام 1231م[27]، وكان في خدمة السلطان السلجوقي علاء الدين سلطان قونية الذي أقطع أرطغرل وعشيرته[28]، منطقة صغيرة جدًا في الثغور المواجهة للدولة البيزنطية في شمال غربي الأناضول عند سكود في وادي "قره صو" و"اسكي شهر"، حتى يتمكن من صيانة الحدود وتوسيعها على حساب جيرانه النصارى[29]. هذا الإقطاع ما لبث أن تحول في ما بعد، إلى إمارة قد برزت بين باقي إمارات الحدود باعتبارها أكثر قوة. وحدث أن وُلد لأرطغرل في عام 1258م، وهو عام دخول هولاكو إلى بغداد، ولد سماه عثمان[30].

- **الصفات المميزة لإمارة أرطغرل الحدودية**

كانت عشيرة قايي التي جاء بها أرطغرل عبارة عن 400 خيمة، أي ما يقارب من أربعة آلاف شخص بمن فيهم النساء والأطفال، وهؤلاء هم الذين كانوا النواة الأولى للدولة مما يدل على صغر حجم الإمارة. وبعد تحول أرضه إلى مقاطعة حدودية (إمارة) ومنحه من قبل السلطان السلجوقي لقب "غازي"، انضم تحت سيادته عدد من العشائر التركمانية الصغيرة مما سمح له زيادة أعداد العشيرة وبالتالي توسيع رقعة أرضه. وتميزت هذه القبيلة بأن محاربيها أقوياء ذوي بأس شديد في القتال وجيدين متلهفين للجهاد والغزو، كما انضم لسيادته النصارى الذين فضلوا البقاء تحت سيادته العادلة، نتيجة الظلم الذي كانوا يعانونه من حكامهم البيزنطيين[31].

وكان للموقع الاستراتيجي الهام للإمارة على تخوم البيزنطيين لأقصى الحدود الغربية تأثيره في توجيه توسيع أراضيه على حسابهم، وبعد إمارته عن مناطق غزو المغول وببعدها أيضًا عن نفوذ الإمارات التركمانية القوية في جنوبي الأناضول وجنوبه الغربي. ووقوع الإمارة بالقرب من الطريق التجاري وهو الطريق الذي يربط المناطق البيزنطية غربًا بالمناطق التي يسيطر عليها المغول في الشرق، أن استقطبت هذه الإمارة أعدادًا كبيرة من التركمان المسلمين المحبين للغزو والجهاد إضافة للدراويش الباحثين عن المريدين، والمزارعين الفارين من وجه المغول فوجدوا فيها مكانًا ملائمًا لنشاطهم الزراعي ولتجارتهم. وكان للسياسة التي اتبعها أرطغرل وهي سياسة إقامة التحالفات المرنة مع القوى السياسية والاجتماعية الأخرى في المنطقة، وتنفيذ سياسة المركزية في الحكم ما مكنه من أن يمسك بزمام الأمور في كافة الظروف التي مرت بها القبيلة. كما استطاع الاستفادة من الثقافة السياسية لسلاجقة الروم التي مزجت بين التقاليد التركية والإسلامية والبيزنطية بما يراه مناسبًا لحاجات إمارته. واتبع سياسة توسعة أملاك الإمارة باسم السلطان السلجوقي على حساب البيزنطيين في الأناضول فاستولى على مدينة أسكي شهر [32]. إضافة للخصائص الجسمانية والنفسية التي تمتع بها أرطغرل ومن خلفه من نسله من كونه واسع الذكاء وكفوءًا في إدارة شؤون القبيلة وما اعترضها من مصاعب، ومحاربًا شجاعًا وعسكريًا بارعًا، على عكس باقي أمراء مقاطعات الأناضول الذين يقومون فقط بواجباتهم تجاه الدولة السلجوقية من تأدية الضرائب المتوجبة عليهم أو الاكتفاء بتقديم الدعم العسكري.

- **التحول من الإمارة إلى الولاية**

خلف عثمان أباه في حكم هذه المقاطعة الحدودية عام 1281، وقد اتبع سياسة والده في توسيع رقعة إمارته، وكان لموقع الإمارة القريب من الحدود البيزنطية أن بقي عثمان ومحاربيه وبشكل دائم على أتم الإستعداد للقتال والجهاد في كل لحظة، وشجعه على ذلك أن البيزنطيين كانوا يعانون من أزمات سياسية وصراعات على الجبهة الأوروبية.

وفي الوقت نفسه، عمل على تحاشي التصادم مع جيرانه أمراء الأناضول المحيطين به. ومن الملاحظ أن الأوضاع السياسية في الأناضول كانت مهيأة لظهور دولة تملأ هذا الفراغ السياسي بعد انهيار دولة سلاجقة الروم على أيدي المغول وتخبط الدولة البيزنطية وضعفها.

إذ ذاك جذبت إمارة عثمان الكثير من المحاربين من الإمارات المجاورة للقتال تحت سيادتهم ضد البيزنطيين[33]، وكان لارتباط عثمان وقبيلته القوي بالإسلام وبالخلق الإسلامي القويم أن أثر إيجابًا على وضعهم كإمارة حدودية، واستمر هذا الارتباط والتحالف الذي شكل عاملًا مهمًا في الفتوحات إبان خلفاء عثمان. بعد فتح عثمان "قره جه حصار" (القلعة السوداء) عام 1288م. نقل مقره إليها، فسُر السلطان السلجوقي وأجاز له ضرب العملة[34] وأرسل إليه علامات السلطنة وهي الطبل، والعلم (الراية)، وشارة الرأس (طوغ) وأقطعه الأراضي التي يستولي عليها من البيزنطيين إليه كافة. وبذلك أصبح بصورة رسمية أمير مقاطعة حدودية كبير "أوج بك"، وأمر بقراءة خطبة الجمعة باسمه وصار هذا إعلانًا ضمنيًا بأنه أصبح شبه مستقل[35]. وفي عام 1300م. وبعد وفاة السلطان السلجوقي، أعلن عثمان استقلاله أسوة بغيره من أمراء الحدود والبالغ عددهم ثلاثة عشر أميرًا أسس كل منهم دولة مستقلة على أنقاض الدولة السلجوقية[36].

في عام 1301 حاصر عثمان نيقية، وهي العاصمة السابقة لبيزنطة، واستطاع الانتصار على جيش الإمبراطور المكون من ألفي جندي مما ساهم في شهرة عثمان. وكما كان شائعًا في الإمارات الحدودية فقد حمل هؤلاء الغزاة المجاهدون اسم زعيمهم واشتهروا باسم "العثمانيين"، ويعدّ هو المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية التي نسبت لاسمه[37]. على إثر هذا الإنتصار أخذت إمارته تتوطد وتقوى[38] بفعل عوامل عدة منها استيلائه على مدينة "يني شهر" وجعلها عاصمة له وهي أول مدينة هامة امتلكها، ثم أخذ بعدها يحول اتباعه من الحياة الرعوية إلى حياة أكثر استقرارًا[39].

فمن الناحية السياسية وضع النظم الإدارية لإمارته ما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها السريع إلى دولة كبرى. كما قام بعدة تحالفات مع جيرانه متجاوزًا الخطوط القبلية والإثنية والدينية، مراعيًا في ذلك تطلعاته المستقبلية السياسية. فلم يألُ جهدًا إن كان ذلك لصالح إمارته في أن يتعاون مع جيرانه البيزنطيين من قادة المدن والقرى. وتشكل علاقته مع ميجال، حاكم قرية هرمنكايا البيزنطي، أكبر دليل على ذلك، والمعروف أن هذا الحاكم النصراني اعتنق الإسلام بعد ذلك وساهم في عمليات الغزو، وتدرج في المناصب الهامة في السلطنة العثمانية[40]. ونجح أيضًا في ضم أراض كثيرة بطريقة سلمية سواء بفرض الحماية، أو من خلال المصاهرات، أو الشراء من الإمارات المجاورة.

وكانت صلة عثمان وثيقة بالإسلام فقد تحدد الإسلام عقيدة دينية رسمية للأتراك منذ عهده، وسار في حكمه من خلال إيمان

عميق، وأخضع حكمه لمشورة الفقهاء المسلمين، ومما ميز تصرفاته هي العدالة وإنصاف المظلوم، إذ إن مسألة التمسك بتحقيق العدالة بين الأهالي كان همّ العثمانيين الأول منذ تأسيس دولتهم[41]. واكتسب عثمان وصف زعيم الجهاد وعبأ العثمانيين بشعور ديني قوي جعلهم متحمسين للدين، بحيث اجتمعت عاطفة الدين مع روح عسكرية متحمسة فكانت صفة مميزة في الأتراك. وتحالف مع الآخية الفتيان من خلال العلاقة التي ربطته بالشيخ أده بالي زعيم الآخية بالي وهو أحد رؤساء الآخية، وفي الوقت نفسه أحد مشايخ الطريقة الوفائية، وقد أدى دورًا كبيرًا في تأسيس الدولة العثمانية. إضافة لتحالفه مع القبائل التركمانية القادمة إلى الأناضول. أما علاقته بخصومه من الجماعات الإثنية كالمغول الذين انتقل معظمهم إلى غربي الأناضول فكانت عدائية، كذلك مع إمارة الكرمانين.

ومن الناحية العسكرية عمل عثمان على استكمال التوسع في اتجاهين: الأول نحو الشمال حتى نهر سقارية باتجاه البحر الأسود، والثاني إلى الجنوب باتجاه بحر مرمرة، وقد حقق بذلك أهدافه حتى سنة 1308م. وهكذا استطاع عزل آخر مدينة بيزنطية هامة في المنطقة وهي بروسة (بورصة)، واستطاع البيزنطيون الصمود من خلال الإمدادات التي حصلوا عليها عن طريق البحر، فاتجه عثمان صوب مودانيا واستطاع الإستيلاء عليها سنة 1321م، عندئذٍ أرغم المدافعين عن بروسة على دفع الجزية لمدة خمس سنوات، ثم سقطت في النهاية في 6 نيسان 1326م. على يد الجيش الذي قاده ولده أورخان ثم أسلم حاكمها (أفرينوس)[42]، إذ كان عثمان قد كلّف ولده شؤون الحرب والسياسة منذ ذلك الوقت. فعدّ فتح بروسة خطوة كبيرة بالنسبة للعثمانيين، وتغير وضع إمارتهم عقب فتحها، إلى ولاية ذات عاصمة وحدود وسكان مستقرين، وما زالت تستقطب العديد من الوافدين، كما كان لديها الإمكانيات لتكوين جيش منظم للدفاع عن أملاكهم ولتوسيع رقعة أراضيهم.

عقب فتح بروسة بقليل استدعي أورخان إلى والده فوجده على فراش الموت، ولم يلبث أن أسلم الروح إلى بارئه بعد حكم دام سبع وعشرين سنة، وكان قد أن أوصى بالملك من بعده لابنه أورخان، ثاني أولاده المولود سنة 1281م. الذي وصف بالشجاعة والإقدام، ولم يوص عثمان بالحكم لأكبر أبنائه علاء الدين لميله للزهد والورع والعزلة، ودفن في بروسة[43]. عندما استلم عثمان من والده الإمارة كانت مساحتها 4800 كلم، وعندما توفي هو كانت مساحة إمارته 16000 كلم. وبعد وفاته أطلق عليه لقب "خان" بمعنى "السلطان"، لأنه أصبح في أواخر أيامه "أمير الثغور"، وتأكد استقلال إمارته وتحولها إلى ولاية.

– تطور الحياة الإدارية والثقافية

تمثلت عبقرية عثمان في أنه وضع أسس دولة استوحى نظمها وتقاليدها من مؤسسات الدولة السلجوقية الرومية[44]

بحيث تحول العثمانيون على عهده من نظام القبيلة المتجولة إلى نظام الإدارة المستقرة. ويمكننا أن نتبين أن الدولة العثمانية ورثت حضارة السلاجقة وحضارة الدول التركية الأناضولية، كما أنها أخذت نظم الإدارة عن المماليك وعن الإيليخانين، وتأثرت إلى حدٍ ما بالبيزنطين[45]. إذ وفد إليها طائفة من أعضاء الإداريين السلاجقة الهاربين من المغول ومن الإيلخانيين المهاجرين من وسط الأناضول الساعين للإلتحاق بإمارة عثمان، وبفضلهم تم وضع وتأسيس الجهاز الإداري للإمارة العثمانية. كما كانت الأسس الإسلامية هي المؤثرة على جميع النواحي الإدارية والقانونية وعلى جميع المؤسسات. وقد تأثرت إدارتها بعاملين أساسيين: أولهما الأسس الدينية للإسلام، وتأثير الدول الإسلامية السابقة على الدولة العثمانية لاسيما الدولة العباسية. أما العامل الثاني فهي المؤسسات التي كانت موجودة في الإمارات التركية السابقة والتي لا تتعارض مع الإسلام. وكان أهم أنموذج اتخذه العثمانيون لهم في إدارة دولتهم هي دولة الإسلام التي شاركت مختلف الشعوب الإسلامية في تطويرها وتنميتها وأهم مؤسساتها السياسية والقانونية والعسكرية، وهذا ما أعان دولته على التطور السريع نحو الدولة العالمية.

كما وفد إلى الإمارة، العلماء والفقهاء هربًا من الزحف المغولي، وكثير منهم ممن درسوا في العواصم الإسلامية بإيران ومصر والقرم وكانوا يرافقون بعض الأمراء، وبالتدريج وضع هؤلاء العلماء بمساعدة الأمير عثمان أسس العقيدة الإسلامية ونظم الإدارة، وبدأوا يقيمون في الوقت نفسه المؤسسات والمدارس الثقافية الإسلامية، وكانت إمارة الحدود هذه كلما تقدمت وتوسعت، تطورت الحياة المدنية والقروية وزادت الكثافة السكانية فيها، وهذا ما انعكس تاليًا زيادة في النشاط الفكري وفي التحول إلى الدولة. وبفضل العلماء والفقهاء، اكتسبت المدارس شهرة واسعة[46]. وحلت في الأراضي والإمارات الحدودية ثقافة شعبية شاعت فيها الطرق الصوفية والأدب الملحمي جنبًا إلى جنب، وهنا أصبحت اللغة التركية لأول مرة لغة الإدارة والأدب[47]، وبالتدريج برزت ثقافة تداخلت فيها اللغات التركية والفارسية والعربية.

- ثلاثية الجامع والتكية والمدرسة الدينية في التمكين للدولة العثمانية

إن التاريخ الاجتماعي عند العثمانيين منذ بداية تأسيس الإمارة وحتى عهد الدولة والتنظيمات كان مرتبطًا بشكل وثيق بالحركات الدينية لأنها جزء من التاريخ الاجتماعي. إذ إن تاريخهم الديني كان مفعم بالحركة عن طريق المدارس والتكايا والزوايا المنتشرة في كل أراضي الأناضول، وكانت الحياة الاجتماعية في الواقع هي تاريخ المؤسسات والمدارس الدينية والحركات والطرق الصوفية (كالبكتاشية والمولوية والخلوتية وغيرها) وأسلوب حياة أناس القبائل والعشائر، كما هو سياسة يتبناها الحاكم.

وكان أن عظم النشاط والرخاء الاقتصادي في الإمارة العثمانية بمجيء

التجّار إضافة إلى مجيء العلماء والإداريين [48]، وكان قد سبقهم دراويش الطرق الصوفية الذين كانوا يسكنون في المدن والقصبات والإمارات الحدودية، ويقيمون الزوايا التي كانت هي النواة التي يتوطن حولها الأتراك. وبما أن الطابع العام للإمارة كان الغزو لأنها على التخوم فأُقرت "الفتوة"، ويعود أصل هذا التنظيم إلى مجيء طائفة "الأخيان" (وهي جماعات الصناع والحرفيين والتجار المنظمة وكان لها أيضًا توجه ديني) ومجيء جماعة فرق الغزاة أو المجاهدين "آلبر" مع العشائر التركمانية وانتشروا في الأناضول [49]. ولم تكد تشكيلات الآخية تتوطن في الأناضول حتى قامت في ما بينها عرى الصداقة واكتسبت لجانبها طبقة الصنّاع المتواجدة سابقًا في المدن. وكانت طائفة الآخية تتشكل من أهل الصناعة من الشبان العزاب[50] كما أخذت هذه الطائفة، إلى جانب المشايخ ودراويش الطرق الصوفية[51]، بتنشئة التركمان الذين ليست لديهم روابط وثيقة بالدين الإسلامي، ويربونهم تربية إسلامية ويغذون أفكارهم بالقيم التي تتمثل في تعظيم فتح الأقطار لاكتساب أراض إسلامية جديدة، ويتم توطينهم في هذه الأراضي المفتوحة حديثًا كما يتم تشجيع العناصر الأكثر حماسة للذهاب إلى أقصى الغرب حتى نهاية الحدود البيزنطية، واستطاعوا بذلك أن يحولوا تقاليد "الفتوة" القديمة والروح العسكرية في التقاليد الغُزية والتركمانية إلى مفهوم الغزو والجهاد والرباط عند الثغور الإسلامية التي يحضّ عليها الدين الإسلامي، فكان لهم الدور الأبرز في استيطان الأتراك في المناطق المفتوحة حديثًا عن طريق هذه الزوايا التي ينشؤونها، وتنظيم هذه الأراضي واستغلالها في استقرار الأتراك ونشر تعاليم الدين الإسلامي.

وهكذا تم تحويل القصبات إلى مدن تركية إسلامية، يكون مركزها المسجد الذي تقام حوله مؤسسات اجتماعية مثل التكية والمدرسة، ومع هؤلاء العلماء والمشايخ ظهرت أهم العوامل التي يسرت نشر الأخوة الإسلامية وترسيخها بالإستعانة بالطرق الصوفية المستمدة من تعاليم الإسلام. واستطاعت هذه القلاع القوية (الجامع والتكية والمدرسة) من صد جميع الهجمات الشرسة للبيزنطيين للقضاء على الإمارة العثمانية الفتية. أدرك عثمان وخلفاؤه مدى تأثير هؤلاء المشايخ في بثّ روح الجهاد بين الشباب واستقطابهم [52] فبنى في أسكيشهر مسجدًا وعين فيه الموظفين اللازمين لإقامة شعائر الدين الإسلامي وتطبيق الشريعة، ووطد سلطته على مبدأ تحقيق العدالة وفق هذه الشريعة.

ونرى أن الإيمان الذي استمده المجتمع من ثلاثية التكية والجامع والمدرسة إضافة إلى رابطة الأخوة الإسلامية والإستعانة بالطرق الصوفية، كان لكل هذه العوامل، الأثر الكبير في نمو هذه الإمارة الفتية واستقرارها في عهد الغازي عثمان، وتم الإستيلاء على كثير من المدن البيزنطية الواقعة في منطقة الحدود. وبازدياد توغل الأتراك في الأناضول أمكن فرض الطابع

التركي الإسلامي على المدن، وأخذوا يبنون المساجد وغير ذلك من المنشآت والمباني.

– **مميزات الإمارة العثمانية**

ما ميز إمارة عثمان التركيب الاجتماعي الخاص، لأنها كانت على التخوم أي على أهبة الإستعداد للجهاد في أي وقت، تواجد فيها تنظيمات الآخية فيها وطائفة أبدال روم (أو الطريقة القلندرية وهم الدراويش أتباع بابا الياس وحاجي بكتاش وهم ممن يتبعون الطرق القلندرية واليسوية والحيدرية والوفائية). في ظل هذا الوضع وجدت هذه الطائفة في الإمارة العثمانية إمارة مناسبة فاتخذتها مقرًا لها (53)، وانتشر أتباعها وحدهم دون سواهم داخل أراضي الإمارة العثمانية، ويرجع ذلك إلى التركيب الاجتماعي والثقافي للإمارة وفكرة الجهاد والغزو على حساب البيزنطيين هي المسيطرة على أهلها، فكان الفكر الجهادي متوافقًا مع طبيعة تنظيم الآخية وابدال روم المتصوفة، إضافة إلى أنه لم يكن من تنافس بين هذه الطائفة وطائفة المولوية التابعة لجلال الدين الرومي التي اتخذت من عواصم الإمارات الداخلية مقرًا لها.

وقد مرّ المجتمع القبلي للإمارة العثمانية في سبيل تطوره وتشكله كدولة وكيان سياسي مؤثر في المنطقة في مرحلتين تكاد أن تكون متداخلتين:

– الأولى، حيث تمثلت في دعوة فرق الغزاة "آلبر" للغزو والجهاد في الأراضي البيزنطية، ووجدت لدعوتهم استجابة لدى القبائل والعشائر المستقرة على الحدود، وهنا جاء دور الأمير أو الغازي وشخصيته لتؤدي الدور الأبرز في تشكيل فرقة من رفاقه الغزاة اكتسبت وضعًا مميزًا داخل العشيرة عن بقية الأفراد الآخرين الذين اهتموا بالشؤون الحياتية اليومية لمجتمع القبلية.

– الثانية تمثلت في توحيد فرق الغزاة المنتشرة بين القبائل تحت قيادة واحدة بعد أن جذبتهم فتوحات عثمان الغازي وشهرته لفتح القلاع البيزنطية التي امتدت من أسكي شهر إلى بورصة وإزنيق، ووصل به الأمر أن أجبر حاكم بروسة على دفع خراج سنوي له[54].

هكذا أخذت شهرة غزوات عثمان ورفاقه "الآلبر" تحدث تأثيرًا كبيرًا بين الأهالي وبين البيزنطيين وتعمل على استقطابهم، كما عملت هذه النجاحات والفتوحات على تثبيت أقدام عثمان كقائد لحركة الجهاد في تلك المنطقة الحدودية وبين الأهالي فضلًا عن التأثير القوي على جماعات الآخيان والطرق الصوفية المنتشرة في غربي الأناضول.

نجح عثمان في إذابة الفوارق بين العناصر المتباينة، التي تألفت منها إمارته، وجعلها دولة واحدة وكان ذلك تمهيدًا لأن تصبح أمة، لذلك عُدّ المؤسس الحقيقي للدولة، وزعيمًا لشعب محارب غازي، يتقلد خلفاؤه سيفه عند تولي مقاليد السلطة. كما كان ذا شخصية محببة تغري الآخرين بالعمل معه، وتحلى بصفات الصبر وضبط النفس والهيبة. واتصف بالعدل والتسامح الديني على الرغم من حماسته الدينية الشديدة وحرصه على تطبيق المبادئ

الإسلامية وبإنصاف المظلوم [55]. فلو اضطهد النصارى لما أمكنه من اجتذاب حديثي العهد بالإسلام والذين قدموا الدعم الكبير لدولته الناشئة.

من أشهر العلماء والشيوخ المتصوفين في تلك المرحلة وكان لهم تأثير كبير: الشيخ "أده بالي" وكان مقربًا من عثمان واسمه الأصلي هو"عماد الدين مصطفى بن ابراهيم بن إناج القرشهري" درس الفقه الحنفي على العالم "نجم الدين الزاهدي" ثم درس العلوم الإسلامية على يد علماء الشام ثم تفرغ للتصوف، وأنشأ زاوية في مدينة "بيلجيك" وكان من رؤساء الآخيين في الأناضول وأخذ يرشد الناس، قام بوظيفة المستشار الديني والإداري فصار أول قاضٍ ومفتٍ في الدولة العثمانية وزوج ابنته "مال خاتون" للغازي عثمان. والفقيه "طورصون" من تلامذة الشيخ "أده بالي" وهو القاضي الثاني في الدولة، و"خطاب بن أبي قاسم قره حصاري" الذي كان من علماء زمانه. أما أشهر الرؤساء المعنويين فهم: الشيخ مخلص بابا وكان دائم الحضور مع عثمان في فتوحاته[56]، الشيخ عاشق باشا، الشيخ علوان جلبي، الشيخ حسن جلبي، والشيخ العارف بالله الشيخ حسن، وبابا الياس.

- **الملامح الأولى لتشكيلات الدولة**

تولى أورخان بن عثمان إدارة شؤون الولاية العثمانية، لكن دولته لم يكن لها قوانين أو عملة أو حدود واضحة. لذا كان عليه بعد الإستيلاء على بروسة أن يثبت أقدام دولته الناشئة، فعيّن أخاه علاء الدين وزيرًا (وكان أول وزير في الدولة العثمانية) وأمره بوضع الشرائع وسن نُظم الدولة وبتدبير شؤونها الداخلية، واهتم هو بالأعمال العسكرية.

وهكذا سارت العمليتان جنبًا إلى جنب أي البناء الداخلي والفتوحات الخارجية، ما لبث أن اتخذ لنفسه لقب سلطان[57]. ثم نقل عاصمته إلى بروسة[58]، واستأنف عمليات الغزو والجهاد ودخلت قواته نيقية عام 1331م. وكانت من أهم المدن في الإمبراطورية البيزنطية ثم نيقوميديا، وامتلك فيما بعد ولايتي قره سي وبرغمه [59]. وأصبح يستهدف شبه جزيرة غاليبولي وتراقيا، كذلك دخلت جيوشه منطقة البلقان، التي سميت الروميللي، فضمت اليونان وبلغاريا وألبانيا ورومانيا وأجزاء من المجر وصربيا وبلغت مشارف فيينا، بعد أن سيطرت على معظم ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى[60].

وعمل على تحويل أتباعه إلى أمة، واستمر بمعاملة الرعايا غير المسلمين بالتسامح الديني [61]، وأصبح الأتراك يفضلون لقب "عثماني" عن لقب "تركي" وبات هذا اللقب (عثماني) لا يعني مدلولًا قوميًا، بل يرتبط فقط بأسرة حاكمة على غرار الأمويين والعباسيين والسلاجقة. كما أن العثمانيين لم يميزوا أنفسهم باعتبارهم طبقة متميزة عن رعاياهم، من غير الأتراك، أو من غير المسلمين، ولم يعدّوا أنفسهم طبقة نبلاء، إذ كان الإسلام واللغة التركية الشرطين الأساسيين للتمتع بالسلطة والوضع الاجتماعي الممتاز، أيًا كان أصل من يأخذ بهما. وكانت النتيجة الطبيعية

لسياسة التسامح التي تمتع بها أورخان أن ازداد عدد العثمانيين فوصل عددهم في أواخر عهده ما يقارب النصف مليون نسمة(62).

أمر أورخان ببناء مركز تجاري في بروسة يضم سوقًا في سنة 1340 (63)، وبنى مدرسة في أزنيق وهي أول مدرسة بنيت في الدولة العثمانية وكانت في الأصل ديرًا، وعين للتدريس بها أحد شيوخ التصوف هو شرف الدين داود القيصري، والمدرسة الثانية التي أقامها كانت في بورصة، وعرفت باسم مدرسة مناستر وكانت كنيسة حولها إلى مدرسة. من أهم أعمال الأمير علاء الدين شقيق أورخان أن أمر بسكّ أول عملة فضية وذهبية، وأعاد تنظيم الجيش وجعله دائم الإستعداد بعد أن كان لا يجمع إلا وقت الحرب ويصرف بعد انتهائها، وتكوين فرق المشاة المشهورة باسم "الإنكشارية" (يني جري بمعنى الجيش الجديد) من أبناء الأسرى، والصغار الذين يقعون في الأسر، فيربون تربية إسلامية ويدربون تدريبًا عسكريًّا، ويتخرجون لا يعرفون سوى الجهاد والقتال والحياة العسكرية، ولا يعرفون سوى السلطان سيدًا لهم، فكانوا قوة عسكرية ساعدت السلاطين على فتح أراض جديدة (64). ولقد عمل أورخان على جذب الفئات العليا من البيزنطيين إلى الإسلام عن طريق تطبيق نظام المكافآت على الخدمة العسكرية (إقطاعات حربية) وبقصرها فقط على المحاربين المسلمين المخلصين، وأعلن بأن جزءًا كبيرًا من الأراضي التي يتم الإستيلاء عليها سيوزع على الجنود الذين اشتركوا في القتال. وهكذا استطاع استمالة هذه الفئة. وكان أورخان محبًا لنشر العلوم والآداب وبناء المساجد والمدارس ورصد الأوقاف عليها، فضلًا عن إقامة المنشآت العامة الشاسعة، مما يشهد له بالعظمة والتقوى وحب الدين. ومن علماء زمانه المولى داود القيصري القراماني برع في العلوم العقلية والعلمية كما حصّل علم التصوف، وتاج الدين الكردري والمولى علاء الدين الأسود وغيرهم الكثير.

على العموم، اتسمت فترة حكم أورخان بأمرين: أولهما اتساع الفتوحات العثمانية في الأناضول على حساب ما تبقى من أملاك الدولة البيزنطية أولًا ثم الإمارات التركية السلجوقية لاحقًا والتي وطدت تفوق هذه الدولة، وجعلت كل الإمارات الأخرى تابعة لها خلال ثلاثة عقود من الزمن. وارتبط هذا التحول باكتساب العثمانيين موطئ قدم لهم في أراضي البلقان مما أتاح لهم التوسع في اتجاه الغرب الأوروبي، وثانيهما تنظيم الحكم في الدولة نظرًا لاتساع رقعتها، وقد عمل هذا التنظيم على استقرار الدولة.

كانت السياسة المتبعة في الأراضي المفتوحة في البلقان وعبر تراقيا تشبه تلك التي اتبعت في الأناضول أي توطين العشائر التركمانية فيه إضافة لتشجيع دراويش الطرق الصوفية بالإنتشار، وقد عمدت السلطة العثمانية الحاكمة على ترغيب أتراك الأناضول، للقدوم والاستقرار في المناطق المفتوحة، وفي بعض الأحيان

عمدت إلى التهجير القسري للقبائل التي تميل إلى الشغب.

من ناحية أخرى أسس الدراويش زوايا كثيرة تحولت في ما بعد مراكز لقرى عثمانية جديدة[65]. وتطبيق نظام الإقطاع العسكري (التيمار) في الأراضي المفتوحة في الروملي على غرار مـا حصل أراضي الأناضول قد حمل هـذا مغزى تأسيس حكم فـي هـذه الأراضي[66]. وهكذا نجد بأنه تضافرت عـدة عوامل أبرزت آل عثمان لاسيما العشر الأول من هؤلاء السلاطين.

وكل حاكم اعتلى العرش العثماني تفوق على من سبقه بإمكاناته وخصائصه، وتميز هؤلاء بالقدرة على تخطيط الحركات العسكرية المحسوبة بدقة، كما قاموا بتنظيم أنفسهم، ولقنوا رعاياهم بالاعتماد على أنفسهم، حتى قامت الدولة العثمانية على أسس متينة مكّنها من البقاء زهاء ستة قرون وربع وسط تيارات سياسية متعددة ومتشابكة، وقد تحقق ذلك بفعل عوامل داخلية كان البناء الاجتماعي والعامل الديني معينًا لا ينضب أحد أركانها المهمة وخارجية عديدة.

- خاتمة

كانت المرحلة المبكرة لقيام الإمارة وتوسعها هي الطبيعة القبلية، التي نشأت كبقية المجتمعات والإمارات التركمانية التي سكنت الأناضول. ثم جاءت مرحلة التنظيم القبلي وقد ساعدت العثمانيين عدة ظروف مكانية وزمانية، من هذه الظروف أن القوى التي كانت تقطن مناطق التخوم وعلى احتكاك مباشر مع الأعداء تكون على أتم الاستعداد للغزو والجهاد.

ومن الثابت في تاريخ الأناضول أن إمارات الحدود كانت أوفر نصيبًا في التوسع من إمارات الداخل وهذا ما ساعد الإمارة العثمانية، وجاء قيام تنظيمات الأخوة وتنظيمات المحاربين وانتشار تكايا وزوايا المشايخ والدراويش والمتصوفة، وغلبة الطابع العسكري ومحاربة الأعداء وفتح مناطق جديدة وضمها للإمارة، وهو ما أعطى العثمانيين الأوائل طابع القوى العسكرية وفي التمكين لهم. وشكلت فرق الآخيات والألبر المحارين فرقًا مميزة داخل المجتمع القبلي وتصدّت بنجاح للقوى المعادية لهم، إضافة لانتشار الزوايا والتكايا التي اعتبرت الحجر الأساس لتأسيس المجتمع التركي في الأراضي المفتوحة حديثًا، مما أعطى ميلاد الدولة العثمانية صبغة صوفية واضحة، وكان روح الجهاد الديني غالبًا، وكان يسير في إثر الجيش العثماني القضاة والمفتون ورجال الهيئة الدينية ورجال الطرق الصوفية ورجال الفكر، وأسهم الجميع في نشر الإسلام في الأقاليم المفتوحة، فاقترنت حركة الفتوح العثمانية بنشر الإسلام.

إلى جانب ذلك كـان هناك اهتمام بالثقافة والحضارة، وقـد اتسمت الحياة العلمية في المدرسة العثمانية في مرحلة النشأة والتكوين بالصبغة الصوفية نظرًا للعلاقة القوية بين السلاطين العثمانيين والمتصوفة وقتئذ. وكان احترام العلماء، والمتصوفين منهم، من أهم التقاليد الراسخة

في الدولة العثمانية إذ تمتعوا بمعاملة ومزايا خاصة.

كما كان اهتمام آل عثمان بصهر الأعراق الجنسية المتعددة التي شكلت الأمة العثمانية مع بعضها البعض، والمعاملة الحسنة للمناطق التي تفتح حديثًا. ولم تعرف السلطنة العثمانية طبقة النبلاء، فدمجت جميع الأجناس والأعراق التي ضمت في ثناياها في بوتقة واحدة، وكان شرطا الإسلام والتكلم باللغة التركية للتمتع بالوضع الاجتماعي الممتاز داخل السلطنة.

من ناحية التنظيمات وإدارة الدولة فقد شكلت البدايات الأولى للسلطنة العثمانية، مرحلة انعكاس ما كانت عليه الدول الإسلامية السابقة لاسيما دولة سلاجقة الروم من مختلف الإدارات والتنظيمات والمؤسسات. لكن ما تميزت به الدولة الناشئة مع مرحلة التوسع والفتوحات هي التنظيمات السياسية والإدارية والقضائية والعسكرية وسك العملة وإنشاء المدارس، فانتقلت بذلك إلى مرحلة التحضر والإستقرار. ومما يميز سلاطين آل عثمان الأول أنهم لم يشنوا الحرب تلو الحرب طمعًا في التوسع، كما كان الحال مع غيرهم، وبخاصة الآسيويين، بل تميزوا بالحرص والرغبة في تعزيز سلطتهم في الأراضي التي يتاح لهم ضمها وطبعها بطابعهم المدني والعسكري، وبذلك تصبح جزءًا لا يتجزأ من أملاكهم بحيث تصبح هذه الأراضي المفتوحة متماثلة ومستقرة كمثل سابقتها.

***

الهوامش

• **أستاذة مساعدة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية (قسم التاريخ) – الجامعة اللبنانية**

(1) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، المجلد الأول، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، ط.1، تركيا، استانبول، 1988، ص65

(2) هاميلتون غب وهارولد بوون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد إيبش، الجزء الأول، ط.1، إصدارات دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2012، ص68، وص 69، ويلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، م. س.، ص43، وص 46

(3) سيد محمد السيد محمود: تاريخ الدولة العثمانية النشأة والإزدهار، مكتبة الآداب، ط.1، القاهرة، 2007، ص 40

(4) محمد فؤاد كوبريللي: قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر1967، ص 87، وص 97، وفريدون أمجن: التاريخ السياسي للدولة العثمانية، من كتاب: أكمل الدين احسان اوغلو: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، المجلد الأول، نقله إلى العربية صالح سعداوي، استانبول، 1999، ص 5

(5) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، طبع بمطبعة محمد أفندي مصطفى بحوش قدم بمصر المحمية، ط.2، 1896، ص39

(6) كوبريللي: قيام الدولة العثمانية، م.س.، ص92، و 100

(7) م. ن.، ص 56، وأحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، ط.2، بيروت، 1986، ص 23 وص 24

(8) نشأت **الدولة الأيليخانية** تحت حكم سلالة مغولية حكمت بلاد فارس والعراق وأجزاء من الشام وشرق الأناضول والقوقاز وكان مقرها تبريز.

(9) خليل اينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الإنحدار، ترجمة محمد م. الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، ط.1، بيروت، 2002، ص 14

(10) أحمد يشار أوجاق: الحياة الدينية والفكرية، من كتاب: الدولة العثمانية، المجلد الثاني، م. س.، ص 171

(11) فريدون أمجن: التاريخ السياسي للدولة العثمانية، من كتاب: الدولة العثمانية، المجلد الأول، م. س.، ص 7

(12) كوبريللي: قيام الدولة العثمانية، م.س.، ص79 وص 84

(13) أحمد زكريا الشلق: العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة 1516–1916، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط.1، القاهرة، 2002، ص 18

(14) مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، م. س.، ص 21

(15) م. ن.، ص 101

(16) كوبريللي: قيام الدولة العثمانية، م.س.، ص (م)

(17) مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، م. س.، ص 12

(18) أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، م.س.، ص 47، وص 48، وكارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقلها إلى

العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط.5، دار العلم للملايين، بيروت، 1968، ص 393، وص 394، ومحمد فؤاد كوبريللي: قيام الدولة العثمانية، م. س.، ص (ف).

(19) أحمد بن علي زين العابدين بن محمد الرضوي المعروف بـ"عاشق جلبي": ذيل الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، حققه وقدم له عبد الرازق بركات، دار الهداية، القاهرة، ط.1، 2007، ص 12

(20) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، م. س.، ص 77

(21) كوبريللي: قيام الدولة العثمانية، م. س.، في المقدمة للمترجم ص (ف).

(22) أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، م. س.، ص 78

(23) م. ن.، ص 67

(24) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، م. س.، ص 405

(25) محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثماني، طبع في مطبعة صادر، بيروت، 1925، ص 77

(26) كوبريللي: قيام الدولة العثمانية، م.س.، ص76 وص77

(27) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، م. س.، ص 87

28 Carl Brockelmann: History of The Islamic Peoples, New York, p.260.

(29) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، م. س.، ص 408

(30) بيهم: فلسفة التاريخ العثماني، م. س.، ص 79

(31) اسماعيل أحمد ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط.1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1996، ص 19، وكوبريللي: قيام الدولة العثمانية، م. س.، ص 136.

(32) محمد سهيل طقوش: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الإنقلاب على الخلافة، دار النفائس، ط.3، بيروت 2013، ص 25

(33) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، م. س.، ص 406

(34) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العثمانية، م. س.، ص 40

(35) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، م. س.، ص 91

(36) محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثماني، م. س.، ص 80، ومحمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية، م. س.، ص41

37 Edward Creasy: History of the Ottoman Turks,New York, 1878, p 4.

(38) خليل اينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الإنحدار، م. س.، ص 15

(39) أحمد فؤاد متولي: تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، ايتراك للنشر والتوزيع، القاهرة 2005، ص 36

(40) طقوش: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الإنقلاب على الخلافة، م.س.، ص 28، واينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الإنحدار، م. س.، ص16

(41) فريدون أمجن: التاريخ السياسي للدولة العثمانية، من كتاب: الدولة العثمانية، المجلد الأول، م. س.، ص 11

(42) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي العهد العثماني -8-، المكتب الإسلامي، ط.4، بيروت، 2000، ص 62

(43) عيسى الحسن: الدولة العثمانية عوامل البناء وأسباب الإنهيار، ط.2، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان 2015، ص13

(44) خليل اينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الإنحدار، م. س.، ص 17، وسيد محمد السيد محمود: تاريخ الدولة العثمانية النشأة والإزدهار، م. س.، ص 398، وص 399، وفي الحاشية.

(45) كوبريللي: قيام الدولة العثمانية، م. س.، ص (ر).

(46) م. ن.، ص 112، وص 136

(47) اينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية، م. س.، ص16

(48) كوبريللي: قيام الدولة العثمانية، م. س.، ص 137

(49) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الجزء الأول، دار احياء علوم الدين، بيروت، ط.1، 1987، ص 292، ومحمد فؤاد كوبريللي: قيام الدولة العثمانية، م. س.، ص 110، وص 155 وما بعدها، وأحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، م. س.، ص 26

(50) أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتورك: الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، استانبول، 2008، ص549، وص 550

(51) شرح المؤرخ العثماني **عاشق باشازاده** أن هؤلاء "الأولياء" أو العلماء والدراويش أنهم ينقسمون إلى أربع طوائف وهم: طائفة "غزيان روم" أي الغزاة ضد البيزنطيين ولما انتظم أرباب الحرف في المدن في المراكز الصناعية دخلت هذه العبارة في مصطلحاتهم وكانوا على صلة بالجماعات الصوفية وبعض المصادر تشير إليهم بـ"آلبر" أي المحاربين، و"آخيان روم" وكان أكثر تواجدهم في القرى وقد تداخلت هذه الطائفة مع جماعة "آلبر"، و"باجيان روم" أي النساء المقاتلات، و"ابدالان روم" وهم الدراويش المجاهدين والهراطقة من دراويش الأناضول وقد لعبت هذه الطائفة دورًا دينيًا واجتماعيًا كبيرًا في القرن الرابع عشر وكان هؤلاء الدراويش يشاركون بسيوفهم الخشبية في المعارك التي خاضها السلاطين العثمانيين وكان لهم تكايا كثيرة في الأناضول سنية المظهر وكانوا في الغالب من الفقراء.

(52) أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتورك: الدولة العثمانية المجهولة، م. س.، ص55، وص 56.

(53) أحمد يشار أوجاق من كتاب: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، المجلد الثاني، م. س.، ص 172 و173 وما بعدها

(54) سيد محمد السيد محمود: تاريخ الدولة العثمانية النشأة والإزدهار، م. س.، ص 86

(55) عزتلو يوسف بك آصاف: تاريخ سلاطين بني عثمان، كلمات عربية للترجمة والنشر، مصر، لا ت.، ص 34

(56) طاشكبري زاده: الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1975، ص7

[57] كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، م. س.، ص 409، وص 410، واسماعيل أحمد ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص 35، و :Carl Brockelmann History of The Islamic Peoples, New York, p. 260.

[58] Ibid. P 262.

[59] آصاف: تاريخ سلاطين بني عثمان، م. س.، ص 36

[60] أحمد زكريا الشلق: العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة 1516- 1916، م. س.، ص 21

[61] مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، م. س.، ص 39

[62] نيقولاي ايفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية، نقله إلى العربية يوسف عطاالله، دار الفارابي، بيروت، 1988، ص 14

[63] خليل اينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الإنحدار، م. س.، ص17، ومحمود شاكر: التاريخ الإسلامي العهد العثماني -8-، ص 62

[64] محمد فريد بك: تاريخ الدولة العثمانية، م. س.، ص42

[65] خليل اينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الإنحدار، م. س.، ص 21، وأحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، م. س.، ص 42

[66] فريدون أمجن: التاريخ السياسي للدولة العثمانية، من كتاب: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، م. س.، ص 14

***

مكتبة البحث

1- ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الجزء الأول، دار احياء علوم الدين، بيروت، ط.1، 1987.

2- أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتورك: الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، استانبول، 2008.

3- أحمد بن علي زين العابدين بن محمد الرضوي المعروف بـ"عاشق جلبي": ذيل الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، حققه وقدم له عبد الرازق بركات، دار الهداية، القاهرة، ط.1، 2007.

4- أحمد زكريا الشلق: العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة 1516-1916، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط.1، القاهرة، 2002.

5- أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، ط.2، بيروت، 1986.

6- أحمد فؤاد متولي: تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، ايتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005.

7- اسماعيل أحمد ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط.1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1996.

8- خليل اينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الإنحدار، ترجمة محمد م. الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، ط.1، بيروت، 2002.

9- سيد محمد السيد محمود: تاريخ الدولة العثمانية النشأة والإزدهار، مكتبة الآداب، ط.1، القاهرة، 2007.

10- طاشكبري زاده: الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1975.

11- عزتلو يوسف بك آصاف: تاريخ سلاطين بني عثمان، كلمات عربية للترجمة والنشر، جمهورية مصر العربية، لا ت..

12- عيسى الحسن: الدولة العثمانية عوامل البناء وأسباب الإنهيار، ط.2، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 2015.

13- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقلها إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط.5، دار العلم للملايين، بيروت، 1968.

14- محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثماني، طبع في مطبعة صادر، بيروت، 1925.

15- محمد سهيل طقوش: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الإنقلاب على الخلافة، دار النفائس، ط.3، بيروت، 2013.

16- محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، طبع بمطبعة محمد أفندي مصطفى بحوش قدم بمصر المحمية، ط.2، 1896.

17- محمود شاكر: التاريخ الإسلامي العهد العثماني -8- المكتب الإسلامي، ط.4، بيروت، 2000.

18- نيقولاي ايفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية، نقله إلى العربية يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، 1988.

19- هاميلتون غب وهارولد بوون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد إيبش، الجزء الأول، ط.1، إصدارات دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2012.

20- يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، المجلد الأول، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، ط.1، تركيا، استانبول، 1988.

21- Carl Brockelmann: History of The Islamic Peoples, New York.

22- Edward Creasy: History of the Ottoman Turks, New York, 1878.

***